

2020

## تلقي "أبي بكر الباقلاني": للإعجاز القرآني

علي بختي  
جامعة زيان، عاشور الجلفة، الجزائر

Follow this and additional works at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat>



Part of the [Islamic Studies Commons](#)

### Recommended Citation

علي بختي, "تلقي "أبي بكر الباقلاني": للإعجاز القرآني" *Dirassat*. Vol. 22 : No. 24 , Article 2. (2020)  
Available at: <https://digitalcommons.aaru.edu.jo/dirassat/vol22/iss24/2>

This Article is brought to you for free and open access by Arab Journals Platform. It has been accepted for inclusion in Dirassat by an authorized editor. The journal is hosted on [Digital Commons](#), an Elsevier platform. For more information, please contact [rakan@aarj.edu.jo](mailto:rakan@aarj.edu.jo), [marah@aarj.edu.jo](mailto:marah@aarj.edu.jo), [u.murad@aarj.edu.jo](mailto:u.murad@aarj.edu.jo).

---

## تلقي "أبي بكر الباقلاني": للإعجاز القرآني

### Cover Page Footnote

مقدمة ابن خلدون 205/2 : عبد الله محمد الدرويش، الطبعة الأولى، 2004 دمشق، دار يعرب-1

## تلقي "أبي بكر الباقلاني": للإعجاز القرآني

د/ علي بختي جامعة زيان

عاشور الجلفة - الجزائر

### مقدمة

تستعيد هذه المقاربة التحليلية لجهود "أبي بكر الباقلاني" في الإعجاز، بناء تصورات هذا العالم للإعجاز القرآني من خلال كتابه "إعجاز القرآن"، وهي عمل يدخل ضمن منظومة قرائية تهدف إلى إعادة بعث تراثنا العربي، واستنطاقه لمعرفة طبيعة السياقات الفكرية المختلفة التي أنتجت لنا ذخيرة معرفية غزيرة ومتنوعة.

إن السياق الفكري الذي كان سائدا في القرن الهجري الرابع، وما قبله إلى القرن الهجري الثاني، كان هدفه الدفاع عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية<sup>1</sup> وهي أدلة تمثل أساس الحجاج والبرهنة عند المتكلمين؛ ومنها كان الاختلاف في هذا السياق الفكري وظهور تيارات كلامية مختلفة، يدافع كل تيار عن آرائه وتوجهه المذهبي الكلامي، وأبرزها ما قام به "المعتزلة" و "الأشعرية"؛ وهما مذهبان يمثلان طرفي الاستقطاب بين أولويات العقل والنقل، مما نتج عنه تعارض في المبادئ والنتائج.

وفي خضم هذا المناخ الفكري السائد ألف كثير من العلماء في قضية الإعجاز، محاولين الإجابة على إشكالات عديدة مرتبطة عند بعضهم بنفيها من أساسها وقولهم بالصّرف، ومرتبطة عند بعضهم الآخر بإقرارها، ومن ثم مناقشة المنكرين والمدّعين على القرآن ومواجهتهم بأدلة الإعجاز الدامغة.

لكن بالرغم مما ألف في هذه القضية، إلا أنها لا تعطي الإجابة المطلقة لكل حيثياتها ومكامنها؛ لأن الأسئلة حول الإعجاز لا تنقطع، وبالتالي فإن حدود (الانقراء) لهذه المسألة لا تنغلق.

1- يعرف "ابن خلدون" علم الكلام بأنه: "علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة". مقدمة ابن خلدون، 205/2: عبد الله محمد البرويش، الطبعة الأولى، 2004 دمشق، دار يعرب.

لذلك فإننا لا نزعم بأن تلقى "الباقلائي" للإعجاز من خلال كتابه "إعجاز القرآن" - وهو مدونة الدراسة البحثية التي تقوم بها - يكشف عن حقيقة مطلقة للإعجاز، وإنما هي وجهة نظر قدّمها، تدخل ضمن منظومة قرائية لها أصولها المرجعية التي ترتبط بخصوصية المذهب الكلامي الذي التزم به "الباقلائي" ودافع عنه.

والإشكال الذي سيعالجه هذا البحث الموسوم هو حدود الانقراء والتلقي لقضية الإعجاز عند "الباقلائي" من خلال كتابه "إعجاز القرآن"؟ ويمكن تفكيك هذا التساؤل إلى أسئلة فرعية تتعلق بما يلي:

- الجهاز القرائي عند "الباقلائي" وخصائصه.

- المنهج القرائي الذي اعتمده في تحليل قضية الإعجاز.

- الإضافة النوعية التي قدّمها "الباقلائي" من خلال كتابه "إعجاز القرآن".

وقبل البدء في معالجة الإشكال المطروح لا بدّ أن نقف عند مراحل تلقي الإعجاز بالنظر إلى الوقع الجمالي الذي أحدثه القرآن، ونحن نتحرّى في ذلك الإيجاز الشديد نظرا لمقتضيات هذا المقال.

### الوقع الجمالي للإعجاز بين التذوق الفطري والتفسير المنهجي

يمكننا أن نميز بين مرحلتين لتلقي الإعجاز، وهما تكشفان عن تطوّر مرحليّ للوقع الجمالي الذي أحدثه القرآن الكريم، وذلك حسب أحوال المتلقين، ويمكن حصرهما في مرحلة التذوق الفطري غير المعلّل، ثم في مرحلة التفسير والتعليل.

#### **1- التذوق الفطري والوقع الجمالي غير المعلّل:**

كان لتلقي الإعجاز اتصال ببدايات نزول القرآن الكريم، وإحداثه الوقع الجمالي الذي تجلّى في أحوال المتلقين وردود أفعالهم، وذلك في مرحلة كان العرب قد بلغوا شأوا عظيما في البلاغة والفصاحة والبيان، إذ أن ما سبق على القرآن - من أمر الكلام العربي وتاريخه - إنما كان توطيدا له وتهيئة لظهوره وتناهيها إليه كما يرى "الرافعي"<sup>1</sup>، فكان القرآن معجزة أذعنت لها ألسنة العرب

1 ينظر: الرافعي، مصطفى صادق، 1973م، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، 158، بيروت، دار الكتاب العربي، الطبعة 9

العارفين بأساليب الكلام، فأفضى ذلك إلى الحيرة والدهشة الجمالية من أسرار هذه البلاغة والفصاحة والبيان التي لم يعهدوها في كلام قط، واستطاعوا أن يدركوا هذا الإعجاز بسليقتهم العربية السليمة، وما حباهم الله تعالى من ذوق وفصاحة وبيان<sup>1</sup>.

ولعلّ ما ذكر في سيرة المصطفى - صلى الله عليه وسلم - من أخبار عن حال المشركين مع القرآن الكريم حينما تلقوه أول مرة، تنبئنا عن مرحلة البداية في التعرّف على الإعجاز، غير أن ما ذكر من هذه الأخبار لم تتعدّ الوصف، وهو ما يكشف عن تذوقهم الفطري الذي يغيب عنه التعليل لهذه الظاهرة، لكن مع هذا التذوق الذي لم يستطع بعضهم إخفاءه كانت المكابرة والإعراض!

فعتبة بن ربيعة - وكان سيد قومه - سمع كلام الله تعالى من رسوله - صلى الله عليه وسلم - ﴿حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون﴾<sup>2</sup>. أنصت له عتبة، وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليها يستمع منه، ثم انتهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى ما انتهى إليه في السورة ثم قال له: يا "أبا الوليد" قد سمعت ما سمعت فأنت وذاك، فكان أن تحقق التأثير والدهشة اللذين أحدثهما القرآن، وهو ما يدلّ عليه قول "أبي الوليد" إني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالتحير ولا بالكهانة، ثم قال: والله ليكوننّ لقوله الذي سمعت نبأ عظيم<sup>3</sup> وهناك أخبار كثيرة تدلّ على أن قضية الإعجاز لها إرهاصات منذ بدء نزول القرآن الكريم، من ذلك أيضا ما لهج به "الوليد بن المغيرة" حينما قال عن القرآن: والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق (لعذيق) وإن فرعه لحناة (ما جني من كل ثمرة) وغير هذا كثير، مما يبيّن كسر القرآن لأفق انتظار المشركين الذين كانوا يظنون أنه كلام من قبيل كلامهم.

غير أن ما ورد عن تلقي الصحابة الكرام للقرآن يكشف عن شدة هذا الوقع والتأثير، كما يكشف عن اعترافهم بأنه كلام معجز، وهو ما تؤكده ردود أفعالهم الإيجابية، بحيث تحولوا من حال إلى حال، وتحدث غير واحد من علماء الإعجاز عن الجانب التأثيري للقرآن في هذه المسألة.

1 - شيخون، محمود السيد، الإعجاز في نظم القرآن 12، ط1، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، 1978م

2 - فصلت 4-1

3- ينظر: ابن هشام، أبو محمد بن عبد الملك، السيرة النبوية، 1/167، القاهرة، المكتب الثقافي للنشر والتوزيع، 2004م

فقصة سيدنا عمر -رضي الله عنه - دليل على هذا، وكذلك قصة "جُبَيْر بن مُطْعِم بن عديّ" -رضي الله عنه- وغير هذا كثير، ذكر بعضها "الباقلائي" في كتابه الذي نحن بصده<sup>1</sup>. ومن الطبيعي أن يغيب في هذه المرحلة التعليل والتفسير لأسباب الدهشة الجمالية والتذوق لكلام المولى عزّ وجلّ؛ لأن هذه المرحلة لم تتبلور فيها العلوم اللغوية والبلاغية بعد.

## 2- التفسير المنهجي للوقع الجمالي:

في بداية مرحلة التفسير المنهجي لم تستقلّ قضية الإعجاز بالبحث والنظر، بل كانت مناقشات حول قضايا تتصل بالنبوة والمعجزة، كما في كتاب "ابن قتيبة" "تأويل مشكل القرآن"، وكتاب "أبي الحسن الأشعري" "مقالات الإسلاميين"، وكتاب "أبي الحسين الحيات" "الاتصار" الذي نقض فيه كتب "الراوندي": "الزمرد" و "الدامغ" و "الفريد" في نظم القرآن<sup>2</sup> وكانت هذه المرحلة بمثابة التمهيد لانفراد قضية الإعجاز باهتمام العلماء في مصنفاتهم.

وفي خضم هذه المرحلة نجد علماء الكلام من معتزلة وأشاعرة قد أسهموا بقدر وافر في تفسير هذا الوقع الجمالي الذي أحدثه النص القرآني، وذلك بالبحث في قضايا الإعجاز، فكثرت مؤلفاتهم، وأضحت القضية تكتسي طابعا تفسيريا تحليليا، وأحيانا أخرى اكتست طابعا تأويليا عند بعضهم. فالّفت الرسائل والكتب والمصنفات للرد على الشيعيين وغيرهم ممن طعنوا في القرآن الكريم، ككتاب "عمرو بن بحر الجاحظ" (159هـ-255هـ) "نظم القرآن" وكتاب "أبي عبد الله محمد بن يزيد الواسطي" "المعتزلي" (ت: 306هـ) "إعجاز القرآن في نظمه و تأليفه"<sup>3</sup> وكتاب "أبي بكر عبد الله بن أبي داود السجستاني" (230هـ-316هـ) "نظم القرآن"، ورسالة "أبي الحسن الرّماني" "المعتزلي" (296هـ-384هـ) "النكت في إعجاز القرآن"، ورسالة "سليمان الخطّابي" "الشافعي" (319هـ-388هـ) في "بيان إعجاز القرآن" وكتاب "أبي بكر الباقلاني" "الملك الأشعري" (338هـ-402هـ) "إعجاز القرآن" وكتاب "أبي الحسن عبد الجبار" "المعتزلي" (359هـ-415هـ) "المغني" حيث أفرد فصلا منه لإعجاز القرآن، و "الرسالة الشافية في إعجاز القرآن" وكتاب "دلائل الإعجاز" لعبد القاهر الجرجاني "الشافعي"

1- ينظر: الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيّب، إعجاز القرآن، 27 مصر، دار المعارف، 1971

2- ينظر: بنت الشاطي، عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، دراسة قرآنية لغوية بيانية 19، ط3، مصر، دار المعارف، 2004

3- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، 269/4، تخ: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1978م.

الأشعري (400هـ-471هـ)، و كتاب "نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز" لـ "فخر الدين الرازي" الشافعي الأشعري (544هـ-606هـ)... إلخ.

وكل هذه المدونات لها بالغ الأهمية في معرفة الحدود الانقراطية لقضية الإعجاز، والوقوف على دلائلها ومكانها تعليلا وتفسيرا وتأويلا.

### تلقي الإعجاز عند "أبي بكر الباقلاني" من خلال كتابه "إعجاز القرآن"

#### 1- "أبو بكر الباقلاني" (338هـ-403هـ)

هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم، المعروف بـ "الباقلاني" البصري، و هو قاض من كبار علماء الكلام، ولد في "البصرة" و سكن "بغداد"<sup>1</sup>، من أبرز علماء "القرن الرابع" الهجري، لقب بسيف السنة و لسان الأمة<sup>2</sup> أرسله "عضد الدولة" إلى ملك الروم فعرف الملك خبره و تبين له محله من العلم، و عجب من فطنته و وقعت له الهيبة في نفسه من كتبه: "إعجاز القرآن" و "الإنصاف فيما يجب اعتقاده و لا يجوز الجهل به في علم الكلام" و "تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل" و "هداية المسترشدين" و "مناقب الأئمة الأربعة" و "التقريب و الإرشاد (الصغير)، و "الانتصار للقرآن" و "دقائق الكلام الرد على من خالف الحق من الأوائل ومنتحلي الإسلام"، و غيرها من المؤلفات.

أما مذهبه فهو أهل السنة والجماعة، وكان مالكي المذهب الفقهي، أشعري المذهب الفكري.

#### 2- كتاب "إعجاز القرآن":

أما كتابه "إعجاز القرآن" فقد أشار المتأخرون من بعد "الباقلاني" أنه باب في الإعجاز على حدة<sup>3</sup> حيث أنه عني بتعليل هذه الظاهرة من وجوها متعددة، ووفقا لما أراده المؤلف في هذا الكتاب فقد دججه بمقدمة ثم قسمه إلى ستة عشر فصلا، أراد من خلالها أن يثبت أن القرآن معجزة، وذلك بتفصيل الدلالة على ذلك من خلال المحاور الأساس التي تتمفصل فيها فصول الكتاب برمتها وهي:

- معجزة النبي والتحدّي بالقرآن وما اتصل به من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم.

- 1

2- أبو عذبة، نور الدين حسن بن عبد المحسن، الروضة البهية فيما بين الأشاعرة و الماتريدية 11، تح: محمد أحمد عبد العزيز، بيروت، دار الكتب العلمية، 2020

3- الرافي، مصطفى صادق، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص: 152

- نفي الشعر والسجع من القرآن وانتفاء المعارضة بهما أو بغيرهما من بدع الكلام.
- نهج القرآن ونظمه المعجز.

وكانت الدوافع العلمية والعقدية للاهتمام بموضوع الإعجاز، تكمن في محاولته إزالة الشكوك التي تعترض للجهال، وما يعرض لأفهامهم من الطعن في وجه المعجزة<sup>1</sup>، وفي هذا موقف دفاعي بالدحض والبرهان على صدق النبوة وتحقيق الإعجاز.

ويضاف إلى هذا استدراكه للنقص السابق في الموضوع؛ فما صنفه "الجاحظ" مثلاً في "نظم القرآن" لا يرى "الباقلائي" فيه جديداً يشفي الغليل، إذ لم يزد فيه - حسب رأيه - على ما ذكره المتكلمون قبله، ولم يكشف عما يلتبس في أكثر هذا المعنى<sup>2</sup>.

### 3- الجهاز القرائي عند "الباقلائي":

يكن الجهاز القرائي عند "الباقلائي" في جملة الأدوات والقواعد التي تتحكم في فعل القراءة لديه، وذلك بوضعه خصوصية السياق القرائي في الحسبان، ولذلك فإن القراءة تقوم أساساً على آليات للفهم في مقابل ما يواجهه من معضلات للتفسير، وهذا كله بغية إيجاد قرائن قوية للبرهنة وللإقناع، وهذا ما جعل كتابه أقرب إلى الجدل الكلامي المذهبي<sup>3</sup> المعتمد على المناظرة.

وهذه القرائن تمثل نتاجاً لنشاطه القرائي التواصلي بينه وبين النص القرائي، مما شكّل لدى "الباقلائي" أفقا خاصاً للقراءة صاغته آليات الفهم والتفسير للإعجاز، وذلك وفق خطوات نرى أن جهازه القرائي أفضى إليها، وهي تكمن في شكلها الأوضح ضمن استراتيجيته القرائية.

### 4- استراتيجية تفسير الإعجاز عند "الباقلائي":

أ- تقسيمه لمجاري الخطاب الأدبي: يتخذ "الباقلائي" من تقسيم الخطاب وتحديد مراتبه منطلقاً للكشف عن وجوه الإعجاز فتحدث عن فنون الكلام من شعر ورسائل وخطب وغير ذلك من مجاري الخطاب، وهي عنده أصول لا يبين فيها التفاسح، وتقصد فيه البلاغة لأنها - حسب - أمور يُعَمَلُ لها في الأغلب<sup>4</sup> ثم يحدّد في موضع آخر أشكال الخطاب، ويقسم الكلام المعهود إلى أقسام لتوضح خصوصية القرآن الكريم وتميّزه وتفرّده، وهذا الكلام المعهود لا يخرج عن الأنواع الأدبية المألوفة، فهي إما<sup>5</sup>:

1- الباقلائي، أبو بكر محمد بن الطيب، إعجاز القرآن، 6

2- نفسه، 6

3- بنت الشاطئ، عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأرق: 110

4- الباقلائي، أبو بكر بن محمد بن الطيب، إعجاز القرآن، 6.

5 - نفسه، 35.



- أعارض الشعر على اختلاف أنواعه
  - الكلام الموزون غير المقفى
  - أصناف الكلام المعدل المسجّع
  - أصناف الكلام المعدل الموزون غير المسجّع
  - الكلام المرسل فيه الإصابة والإفادة والإفهام، وليس معتدلاً في وزنه، وهو يشبه الكلام غير المتعمّل ولا يتصنّع له.
- ويذكر في موضع آخر أيضاً الكلام المقفى غير الموزون، والنظم المقفى الموزون الذي له روي<sup>1</sup>. وهذا التعمّل هو موافقة المعايير اللغوية والفنية التي تحكم هذه الفنون الكلامية، وبالإضافة إلى هذا ذكر أيضاً "الكلام العادي" الدائر في محاورات الناس، لأن التعمّل فيه أقل<sup>2</sup> وقد أشار "الباقلائي" إلى ما يجب في كل واحد من هذه الطرق ليعرّف عظم محلّ القرآن وليعلم ارتفاعه عن مواقع هذه الوجوه، وتجاوزته الحدّ الذي يصحّ أن تجوز الموازنة بينه وبينها<sup>3</sup>.
- وهو فيما ذكره يصرف أيّ شبهة قد تضع القرآن ضمن هذه الأنواع الأدبية، وكلامه عن هذه الوجوه التي يتعالى عليها القرآن لم تكن بأيّ حال من الأحوال مبرراً للموازنة، إلا من قبيل تحديد المفارقة الواضحة كما سنرى لاحقاً.

**ب- تحديده لمستويات المتلقين:** ينطلق "الباقلائي" من كون تلقّي القرآن سماعاً حجة، ولا يكون حجةً إلا وهو معجزة<sup>4</sup> من حيث تلقّيها، وهنا يكمن التفاوت عنده بين المتلقين؛ بين المتلقّي العربي والمتلقّي الأعجمي، حتى بالنسبة للمتلقّي العربي هناك المتلقّي المتوسط من أهل اللسان، وهناك المتلقّي العالي المتناهي في الصنعة<sup>5</sup> وهو الذي استحكمت أدواته الإبداعية، فأصبح ذا موهبة فذة في صنعة الكلام، ومن هذه المستويات تكمن المفارقة في تلقّي الكلام المعجّر الذي تقع به الحجة، ذلك أنه لا يمكن معرفة عجز المتوسط من أهل اللسان أو الأعجمي، حتى يعرف عجز المتناهي في الصنعة، ولا يعرف المتناهي في معرفة الشعر وحده أو الخطب و الرسائل وحدهما غور هذا الشأن، ما

1 - الباقلائي، أبو بكر بن محمد بن الطيب، إعجاز القرآن: 62.

2 - نفسه، 6-7.

3 - الباقلائي، أبو بكر بن محمد بن الطيب، إعجاز القرآن: 7.

4 - نفسه، 9.

5 - نفسه، 25.

يعرف من استكمل معرفة جميع تصاريف الخطاب و وجوه الكلام و طُرُق البراعة؛ لأنه متى سمع القرآن عرف إعجازه من حال نفسه أنه لا يقدر عليه، فكيف بحال غيره ممن هم أقلُّ منه؟<sup>1</sup> وكذلك بالنسبة للأعجمي فهو لا يعلم أن القرآن معجزة إلا بأن يعلم عجز العرب عنه، فهو يجري مجراهم في توجّه الحجة عليه.

ج- استدلاله على إعجاز القرآن: هناك قضايا عديدة طرحها علماء الإعجاز من المتكلمين، تتعلق بوجوه إعجاز القرآن، وهي تتعلق بثلاثة أمور أساسية، وقد ذكرها غيره من العلماء، وهي:<sup>2</sup>  
\* أن القرآن يتضمن الإخبار عن الغيوب، والغيبُ - كما يُعلم - ليس في مقدور البشر أو غيرهم من المخلوقات معرفته إلا بوحى من الله.

\* أن أُمّية الرسول صلى الله عليه وسلم دليلٌ على أن القرآن نصٌّ خارجٌ عن نطاق النصوص البشرية، مهما بلغت ذروة فصاحتها وبلاغتها.

\* أن القرآن من خلال المعاينة النصية بدیع النظم عجيب التأليف، متناهِ في البلاغة إلى الحد الذي يُعلم عجزُ الخلق عنه. ولذلك فإن الاستدلال الثاني هو استدلال "منطقي واقعي"، يستمد حجتيه من واقع الحال الذي عرفه العرب عن أمية الرسول صلى الله عليه وسلم، وانتفاء الوضع والانتحال للقرآن الكريم أمر لازمٌ من الناحية المنطقية؛ وما احتج به الكفار إنما يدلّ على المكابرة والعناد. أما الاستدلال الأول والثالث، فهما قائمان أساساً على استخراج الدليل من القرآن ذاته، باعتباره موضوع البرهنة ومحلّ البرهنة في الوقت ذاته، ويمكن أن نسميه الاستدلال "النصي"، القائم على حجّة القرآن من خلال بنيته النصيّة، وقد ركّز "الباقلائي" على الجانبين التاليين:

- التميّز النوعي: إن خروج القرآن الكريم عن معهود الكلام هو مباينة المؤلف، وهو ما اصطلح عليه "الرماني" بـ "نقض العادة" في كتاب "النكت"<sup>3</sup> وهو وجهٌ خاصٌّ من وجوه الإعجاز النوعي<sup>4</sup> يستلزم مخالفة أقسام الخطاب الأدبي ومراتبه برمتها.

1- نفسه، 25-26.

2- الباقلائي، أبو بكر بن محمد بن الطيب، إعجاز القرآن 33-35.

3- الرماني، أبو الحسن علي بن عيسى، النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، 111 تخ: محمد خلف الله أحمد، محمد زغلول سلام، ط10، القاهرة، دار المعارف، 2019م.

4- التركي، إبراهيم بن منصور، وصف القرآن بالمعجزة في التراث العربي (عرض وتقديم)، 34، الرياض، دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، 2017.

فـ "الباقلائي" عندما حدّد هذه الأقسام والمراتب لم ينظر إلى القرآن كأحد الفنون القولية الإبداعية، وإنما من جهة أنه مخالّف لكلّ كلام العرب شعره ونثره<sup>1</sup> وهو ممكن التميّز النوعي.

-: فكل نصّ له درجة من الانساق والانسجام قد تعلو وقد تسفل، غير أن القرآن له شأن آخر في علوّه مما يجعله يبدّ كلّ متقدّم؛ "فمتى تأملت شعر الشاعر البليغ رأيت التفاوت في شعره على حسب الأحوال التي يتصرّف فيها" أما نظم القرآن فإن جميع وجوهه "على حدّ واحد في حسن النظم وبديع التآليف والرصف، لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا، ولا إسفال فيه إلى الرتبة الدنيا، وكذلك قد تأملنا ما يتصرّف إليه من وجوه الخطاب من الآيات الطويلة والقصيرة، فرأينا الإعجاز في جميعها على حدّ واحد لا يختلف"<sup>2</sup>

5- أسلوب القرآن كسر لأفق التوقع عند الباقلائي: يركّز "الباقلائي" على الجانب الإجرائي من أجل إثبات الأفضلية المطلقة للقرآن الكريم، وهو نتاج المفاضلة بين أفق توقع النص القرآني وأفق توقع النص الشعري، ومدى كسر هذا الأفق للمتلقّي يكون (الانزياح الجمالي) الذي يحدثه القرآن. لذلك فهو قبل المفاضلة -وتلافياً للشبهة - يبدأ بنفي الشعر من القرآن، ويورد الشواهد القرآنية على ذلك<sup>3</sup> ثم ينتقل إلى نفي السجع من القرآن ويورد الشواهد على ذلك أيضاً<sup>4</sup> ثم يؤسّس لمبدأ المفاضلة عنده وفق جدليتي النقص والكمال من جهة، والإحلال والإزاحة من جهة أخرى، وفيما يلي تفصيل ذلك:

أ- جدلية النقص و الكمال: و يبدو ذلك من خلال ما يكشفه "الباقلائي" من اضطرابات للمعنى، و من وهن للتركيب الشعري إزاء النظم القرآني، فاختياره لمعلقة "امرئ القيس" التي حظيت بقدر عظيم من الاهتمام على غرار سائر المعلقات، كان مقصوداً من حيث هي الأنموذج الأمثل لعمود الشعر القديم، لذلك فهو يقدّم قراءة لهذه المعلقة باعتبارها أنضج ما وصلت إليه القصيدة العربية من حيث بناؤها الفني، لذلك فقد وضعها "الباقلائي" محلّ المناقشة و التقييم لمبناها

1- فاضل محمد، عبد الله، 51-52، الباقلائي ناقدا أدبياً، مصر، دار المأمون للطباعة والنشر، ص: 1988م

2- الباقلائي، إعجاز القرآن، 36

3- الباقلائي، إعجاز القرآن: 51 وما بعدها

4- نفسه، 36

و معناها، بما يتفق مع أفق توقع المتلقي الذي اعتاد على الطبيعة النصية المألوفة للشعر، فهي لا تثير في نفسه الدهشة الجمالية إلا ما هو معهود منها مما له علاقة بالاستحسان و الإعجاب.

وانطلاقاً من هذا قام "الباقلائي" باستكشاف هنات القصيدة في كثير من المواطن، فهي متهاققة - حسب رأيه - بين السوقية المبتذلة، والمتوسطة والضعيفة المزدولة، والوحشية الغامضة المستكرهه، وأبيات معدودة بدعية<sup>1</sup> وفي بعض هذه العبارات ما يدل على موقف من الشاعر ومن معلقته، بخلاف موقف سابقه الذين أشادوا بهذه القصيدة كـ "الأصمعي" و "أبي عبيدة" وغيرهما، على اعتبار أسبقية الشاعر في تناول كثير من المعاني.

ويرصد في هذه القصيدة "التطويل" في ذكر المواضع والأماكن - في البيتين الأول والثاني - ويرى أنه لا فائدة ترجى منه وهو - عنده - ضرب من العي<sup>2</sup>، والتناقض حينما أعقب عبارته (لم يعف رسمها) في البيت بقوله: فهل عند رسم داريس من معول<sup>3</sup>، والتكلف والخروج من اعتدال الكلام في: (وقفا بها صحي...)، والاختلال في المعنى لاعتقاده الدمع شافيا كافيا في: (وإن شفائي عبرة...)، فما حاجته إذا لحيلة أخرى، وسائر أبيات القصيدة إما: بيت قليل الفائدة<sup>4</sup>، أو خال من المحاسن والبديع خلوه من المعنى، وليس له لفظ يروق ولا معنى يروع<sup>5</sup>،

أما ما استجاده من هذه القصيدة والتي تعتبر - عنده - من محدود محاسنها وبدائعها أبيات قليلة جدا كقول الشاعر<sup>6</sup>:

وليل كموج البحر أرخى سدوله \*\*\* عليّ بأنواع الهموم ليبتلي  
فقلت له لمّا تمطى بصلبه \*\*\* وأردف أعجازا وناء بكل كل

فهو يرى أن هذا صالح جميل غير أنه ليس من الباب الذي يقال إنه متناهٍ عجيب<sup>7</sup>، في محاولة منه لإنصاف الشاعر فيما أجاد فيه في بعض طرائق الشعر.

1- الباقلائي، إيجاز القرآن: 36

2- الباقلائي، إيجاز القرآن: 160

3- نفسه، 161

4 - نفسه، 163

5- نفسه، 164

6 - ديوانه 48، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، ط 2 بيروت، 2004م.

7- الباقلائي، أبو بكر، إيجاز القرآن، 181

ولم يقف "الباقلائي" عند شعر "امرئ القيس" فحسب، بل نجده قدم قراءة لشعر "البحري" فاختار أجود قصائده، وهي القصيدة التي مطلعها<sup>1</sup>،

أهلاً بذلك الخيال المقبل \*\*\* فعَل الذي نهوهُ أو لم يفعل

برق سرى في بطنٍ وجرة فاهتدث \*\*\* بسناه أعناق الرّكّاب الضّلّل

وقد كانت الخصائص القرائية لهذه القصيدة هي ذاتها خصائص القراءة التي قدّمها لشعر "امرئ القيس"، فقد تتبع فيها المثالب، من التفاوت الحاصل في طبيعة النظم والخلل مع الديباجة الحسنة والرونق المليح كما يقول<sup>2</sup>.

وإنما يضع "الباقلائي" من خلال هاتين القراءتين اللتين قدمهما خصائص الشعرية على المحك، فيقدم أهم خاصية مشتركة بين جميع الشعراء، وهي تهاوتهم بين الضعف والقوة، وبين الخلل والصواب، وبين الجودة والرداءة.

كما أنه يحاول كسر "أفق توقع" المتلقي للشعر، وإعادة تشكيل أفق جديد ناتج عن التفاعل الذي أحدثه القرآن في النفس فصرف عنه غيره، وهو يؤكد على هذا الجانب من خلال توصيفات عديدة للقرآن منها مثلاً قوله: إن القرآن "سهلٌ سبيله؛ فهو خارجٌ عن الوحشيّ المستكره، والغريب المستنكر، وعن الصنعة المتكلفة، وجعله قريباً إلى الأفهام يبادر معناه لفظه إلى القلب، ويسابق المغزى منه عبارته إلى النفس، وهو مع ذلك ممتنع المطلب، عسير المتناول، غير مطمع - مع قربه - في نفسه، ولا موهم - مع دونه - في موقعه أن يقدر عليه أو يظفر به"<sup>3</sup>، وهو ما يؤكد غيره من علماء الإعجاز في غير ما موضع، ومنهم على سبيل المثال "أبو سليمان الخطابي" في رسالته الموسومة بـ "بيان إعجاز القرآن"، إذ يرى أن من وجوه إعجاز القرآن صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس<sup>4</sup>.

إن هذه القراءة التي قدمها "الباقلائي" لقصيدتي "امرئ القيس" و "البحري" تقوم أساساً على

1- ديوانه، 647، تح: حسن كامل الصيرفي، مصر، دار المعارف، 1964

2 - الباقلائي، إعجاز القرآن، 220.

3 - نفسه، ص: 46

4 - الخطابي، أبو سليمان أحمد بن محمد بن إبراهيم، 70 بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.

جدلية النص والكمال، وإذا كان "الباقلائي" في هذه القراءة الجزئية الكاشفة قد بين فيها النقص، فهذا مما يكشف بوضوح عن التلقي الانفعالي، وهو قائم على تلمس الجوانب الفنية في النص الشعري، وهي رهينة المقدرة البشرية المحدودة التي لا ترقى أبداً إلى المقدرة الإلهية التي كشفت عن أن القرآن هو: "أعلى منازل البيان وأعلى مراتبه، ما جمع وجوه الحسن وأسبابه، وطرقه وأبوابه، من تعديل النظم وسلامته، وحسنه وبهجته، وحسن موقعه في السمع وسهولته على اللسان، ووقوعه في النفس موقع القبول، وتصوره على جمته حتى يحل محل البرهان، ودلالة التأليف مما لا ينحصر حسنا وبهجة وسناء ورفعة، وإذا علا الكلام في نفسه كان له من الوقع في القلوب والتمكن في النفوس ما يذهل ويهيج ويقلق ويؤنس، ويضحك ويبكي، ويحزن ويفرح، ويسكن ويزعج، ويشجي ويضطرب"<sup>1</sup> ولا نشك في أن مثل هذا الكلام إنما هو محصلة تفاعل حقيقي مع النص القرآني، فـ "الباقلائي" يعكس شعوره كقارئ واع بحقيقة التنزيل من حيث هو خطاب مختلف تماماً، وليس جنساً أدبياً كما توهمه البعض.

ب- جدلية الإزاحة والإحلال: لما كانت قراءة "الباقلائي" متوقفة أساساً على بعض مظاهر الإعجاز، كان لزاماً أن يدحض بعض الشبهات التي ادعاها بعضهم حول طبيعة النص القرآني. والجدير بالذكر أن القرآن الكريم ظهر في بيئة بلاغية تجعل للبلغ المفوه قدراً كبيراً من الاحترام، ولذلك كانت المفارقة التي أراد تحديدها "الباقلائي"، ليثبت شيئاً جوهرياً في القضية كلها، وهو أن القرآن أراح النموذج الأمثل عند العرب، فكان "نصاً مسيطراً أو نصاً حالاً في مقابل النص الشعري الذي آل إلى كونه نصاً مزاحاً"<sup>2</sup> وتجدر الإشارة إلى أن "الباقلائي" يختلف عن كثير من علماء الإعجاز في هذه المفارقة التي يجعل البعض من النص الشعري على درجة عالية من البلاغة والبيان فيكون هذا منطلقاً للبرهنة على بلاغة وبيان القرآن الكريم.

1 - نفسه، 276-277

2 - أحمد يوسف علي، قراءة النص دراسة في الموروث النقدي 149، ط2، القاهرة، مكتبة الآداب، 2008.

## خاتمة

نستخلص من موضوعنا هذا أن تلقي "الباقلائي" للإعجاز هو جزء لا يتجزأ من منظومة قرائية لها أهدافها، ولا يمكن النظر إليها على أنها مكتفية بذاتها، لأن تلقي "الباقلائي" للإعجاز يمثل فقط زاوية نظر تنطلق من طرفين أساسيين - عنده - أولهما: نفي الشعر عن القرآن، وآخرهما نفي القرآن للشعر وإزاحته كنتاج لهذا الحكم القيمي تجاه الشعر بإزاء القرآن الكريم.

ويتضح مما سبق بأن حدود انقراء هذه القضية من خلال استراتيجية "الباقلائي" القرائية، من منطلقها إلى منتهائها هو البرهنة والاستدلال على نهج القرآن و نظمه المعجز، وذلك من خلال اختبار القيم الجمالية في النموذج الشعري الأمثل، مقارنة بالقرآن الكريم، ليكون ناتج ذلك كله هو محاولته كسر أفق توقع الشعر برمته، و تعديل هذا الأفق وفق الحقيقة التي يرى "الباقلائي" أنها مقترنة بموقف القرآن ذاته من الشعر.

وبالإضافة إلى هذا فإن حمده مرتبط أساسا بجهاز القراءة الذي صاغ عنده القرائن الحجاجية المناسبة، وكتابه "إعجاز القرآن" يكشف عمليا عن طبيعة العلاقة التي تربط بين القرآن والفعل القرائي لديه، في اندماج أفضى إلى وقع جمالي خاص أحدثه التفاعل بين النص (الإعجازي) ومتلق إيجابي.

ويبدو من خلال ما سبق أن منهج "الباقلائي" في تحليله للإعجاز، يتجلى من خلال مزجه بين جانبين متباينين، وهما متعلقان بالرؤى الفكرية المنبثقة عن اتجاهه الشعري، و الرؤى الجمالية. أما عن الإضافة النوعية التي قدمها فهي تكمن في الجانب الإجرائي من خلال المفارقة التي قدمها بشكلها المنهجي، وهي التي أفضت - عنده - إلى كسر أفق توقع الشعر كما أسلفنا.

## المراجع

### القرآن الكريم برواية ورش عن نافع

- أحمد يوسف علي، قراءة النص دراسة في الموروث النقدي، ط2، القاهرة، مكتبة الآداب. 2008م
- البحتري، أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى، تح: حسن كامل الصيرفي، ديوان البحتري، مصر، دار المعارف. 1964م،
- التركي، إبراهيم بن منصور، 2017م، وصف القرآن بالمعجزة في التراث العربي (عرض وتقديم)، الرياض، دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع. 2017م
- الخطابي، أبو سليمان أحمد بن محمد بن إبراهيم، بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح: محمد خلف الله أحمد، محمد زغلول سلام، ط10، القاهرة، دار المعارف. 2019
- الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي، تاريخ بغداد، مصر، مطبعة السعادة. 1931
- خلدون (ابن)، ولي الدين عبد الرحمان بن محمد، 2004م، مقدمة ابن خلدون، الطبعة الأولى، دمشق، دار يعرب.
- خلكان، (ابن)، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، بيروت، دار صادر. 1978
- ديوان امرئ القيس، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع. 2004
- الرافعي، مصطفى صادق، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ط9، بيروت، دار الكتاب العربي. 1973م
- الرماني، أبو الحسن علي بن عيسى، 2019م، النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح: محمد خلف الله أحمد، محمد زغلول سلام، ط10، القاهرة، دار المعارف.



- شيخون، محمود السيد، الإعجاز في نظم القرآن، ط1، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية.  
1978م

- عائشة عبد الرحمان بنت الشاطئ، الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، دراسة  
قرآنية لغوية بيانية، ط3، مصر، دار المعارف. 2004م

- عذبة(أبو)، نور الدين حسن بن عبد المحسن، 2020م، الروضة البهية فيما بين الأشاعرة  
والماتريدية، تح: محمد أحمد عبد العزيز، بيروت، دار الكتب العلمية.

- فاضل محمد، عبد الله، الباقلاني ناقد أدبي، مصر، دار المأمون للطباعة والنشر. 1988م

- هشام (ابن)، أبو محمد بن عبد الملك، السيرة النبوية، القاهرة، المكتب الثقافي للنشر  
والتوزيع. 2004م.